# تجليات التسامح والتعايش في حياة الأمير عبد القادر من خلال تراثه الأدبي والسياسي

**الدكتـور: عبد القادر شريف**
**جامعة الجزائر 2أبو القاسم سعدالله**

**الملخص:**

يجمع الأمير في شخصيته الفروسية البدوية وإلهام الإسلام وديناميكية القرن التاسع عشر،إنه رجل العبقرية. هكذا وصفه الجنرال بيجو ،والمؤرخ جاك بيرك.اعتراف الخصوم بقوة شخصيته وإلتزامه ،ومواقفه تجاه وطنه وشعبه الذي وضع فيه الثقة وبايعه على الموالاة ،والدفاع.اعتراف بإنسانيته تجاه أعداءه ،وتسامحه وتعاطفه مع من يختلف معهم في الدين والعقيدة.

**الكلمات المفتاحية:** الأميرعبدالقادر؛ التسامح؛ الإنسانية؛ المساواة؛ العبقرية؛ الفروسية.

**مقدمة:**

لا يختلف اثنان على أن شخصية الأمير عبد القادر من بين الشخصيات التي اجتمعت فيها صفة السماحة والتسامح، وهذا باعتراف الخصوم خاصة ما ألفه بعض أعلام الغرب من سير وتراجم نالت حياة البطل التاريخي، أمثال شارل تشرشل،والجنرال سكوت، والماريشال سولت. وقد وقفوا مبهورين إزاء الطابع الإنساني الذي انصبغت به معاملاته تجاه عدة حوادث،شملت أسرى العدو، وخصومه في الداخل، وحتى الأقليات في بلاد الشام.

فالتسامح لا يرقى إليه سوى كبار النفوس من أسوياء البشر، وكان وراء تجسد السماحة في شخصية الأمير تكوينه الديني خاصة وأن الدين يحمل في عنوانه معاني، السلم والسلام ويقف حريصا على تحقيق هذا البعد.

إن شخصية الأمير جمعت العديد من الصفات، فكان فارسا شجاعا، وأديبا كاتبا، وصوفيا، وهي صفات قل ما نجدها في شخصية واحدة.والأمر الآخر الذي لابد من الإشارة إليه هو تمتعه بالبعد السياسي حيث استطاع أن يؤسس لدولة في مدة قصيرة رغم الصعوبات، اتسمت بأبعادها الإسلامية وتنظيماتها الدقيقة، بحيث اعترفت بها فرنسا نتيجة النجاحات التي حققها في نضاله ضد السلطات الاستعمارية.

لا يخامرنا الشك في أن الأمير يعد شخصية عالمية نادرة لا تتكرر إلا في فترات زمنية طويلة، والبحث فيها لا يزال سطحيا فهو لم يأخذ حقه الكافي من الدراسة المعمقة في جميع جوانب حياته، وهو الذي كان مشتغلا بالمقاومة لكنه لم ينس مقاومة القلم، واشتغل بالكتابة والتأليف والقراءة، هذا الذي دفع العديد من المثقفين والمستشرقين ودعاة الماسونية طمعا في معرفة نوازعه ومواقفه إزاء الحرية والأديان والإنسان والفلسفة والمرأة ونظم الحكم.

كل هذا يدفعنا إلى طرح العديد من التساؤلات حول شخصيته وأعماله ومواقفه وتصوفه وإنسانيته وتسامحه.

فما هي منطلقات السماحة في شخصية الأمير؟ وما مظاهر وتجليات التسامح في حياة الأمير النضالية؟ وما هي انعكاساتها على صورة الجزائر؟

**1-النسب والمولد:**

**أ-النسب:**

هو عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد يرجع في نسبه إلى إدريس الأكبر بن عبد الله المحصن بن حسن المثنى بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت سيد الخلق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقد كانت أسرة الأمير عبد القادر تعتز بامتداد حلقاتها إلى هذا المعدن الشريف، ففي القرن الثامن هاجر إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المغرب، هارباً من بطش العباسيين، وأنشأ دولة الأدارسة وعاصمتها فاس، ودام حكمها حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وبعد أن سكنت بعض سلالات العائلة الكبيرة الأندلس، انتقل أحد أجداده عبد القوي الأول في نهاية القرن الخامس عشر. بعد سقوطها عام (1492م)، واستقر بقلعة بني حماد قرب سطيف.[1]

أما جده مصطفى فقد أسس الزاوية القادرية، نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، بعدأن زار مدينة بغداد عام (1791م). واشتهرت أسرته بالورع، وكانت قدوة للناس في الجهاد والعلم، وتوفي جده مصطفى بعين غزالة، قرب مدينة درنة في إقليم برقة شرق ليبيا عام (1797م) عند عودته من الحج، ودفن في نفس المكان وما يزال قبره معروفاً حتى الآن.[2]

ولد والده محيي الدين بقرية القيطنة عام (1776م)، ودرس على يد أبيه مصطفى، وورث عنه مشيخة الزاوية القادرية، واشتهر والده بسداد الرأي، وغزارة العلم، وقاوم ظلم بايات الغرب الجزائري منذ عهد علي قارة الذي حكم من عام (1812م) إلى (1817م). وآخرهم حسن بن موسى الذي حكم من (1827م) حتى (1830م).[3]

**ب- مولده ونشأته:**

ولد في (25 سبتمبر 1807م) في قرية القيطنة، وأمه السيدة بنت عبد القادر ابن خدة، وهي تنحدر من بيت علم وتقوى، من أولاد سيدي عمر بن دوحة، تلقى دروسه الابتدائية في مسقط رأسه تحت إشراف والده؛ وختم القرآن الكريم قبل أن يبلغ الحادية عشرة، وتعلم مبادئ شتى العلوم اللغوية والشرعية، ونال درجة الطالب، وكلف بتحفيظ القرآن للأطفال، وإلقاء الدروس والتفسير في الزاوية.[4]

ومن أجل إتمام دراسته سافر عام (1821م) إلى مدينة أرزيو الساحلية؛ التي تقع شمال مدينة معسكر، على بعد حوالي سبعين كيلو متراً، وذلك على يد القاضي الشيخ أحمد بن الطاهر البطيوي؛ الذي كان مشهوراً بغزارة العلم وسعة الاطلاع، وبعدها رحل إلى مدينة وهران إلى مدرسة العالم الفقيه أحمد بن خوجة، صاحب رائعة "در الأعيان في أخبار وهران"، وتوسع في المعارف اللغوية والفقهية والنحو والبيان والفلسفة والمنطق وصقل ملكاته الأدبية والشعرية، واجتهد في حضور حلقات العلم لعلماء

وهران، مثل الشيخ مصطفى الهاشمي والشيخ بن نقريد، وقضى عامين كاملين في هذه الرحلة العلمية، وعاد إلى مسقط رأسه وتزوج بابنة عمه الآنسة خيرة بنت أبي طالب عام (1823م) وأقام في القيطنة معلمًا.[5]

وكانت له رحلات علمية للقرويين والزيتونة، وكانت البيئة التي عاش فيها بيئة إسلامية وتربوية إيمانية واجتماعية متماسكة، وفي ظلها تكونت شخصيته، وهي التي أثرت في تكوينه النفسي والجسماني والفكري والاجتماعي والسياسي، وهذا التكوين يعود إلى عوامل منها:

- العامل الوراثي والبيولوجي والعقلي للأمير.
- البيئة الثقافية والاجتماعية التي نشأ في ظلها وعاش فيها.

لقد سمع الأمير عن ذلك التصوف من والده الذي لا شك قد حُفر في ذاكرته، وهو محاربة والده لأصحاب الطرق الصوفية الشاذة.[6]

**2-الأمير عبد القادر والصوفية:**

اشتهر الأمير بشخصيته الصوفية التي استمدت تعاليم ومبادئ الإسلام من الزوايا ،ولاتتفق فلسفته في الحقيقة مع العنف بل هو إنسان محب للسلام راعيا للمحبة والوئام كيف لا وهو من قال:"لو استمع إلي المسلمون والمسيحيون لجعلت منهم إخوة."[7]

كان الأمير فارسا صوفيا ،والصوفية في حياته ليست عنصرا مكتسبا،بل هي جزء من حياة أسرته فقد تربى منذ الصغر في الجو الروحي الصافي.فوالده الحاج محي الدين صوفي راسخ القدم اذ لبس الخرقة القادرية من نقيب الأشراف السيد محمود ببغداد وألف والده كتابا جليلا في التصوف سماه "إرشاد المريدين". وقد سافر الأمير مع والده في رحلته إلى الحج فزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم،كما زار بيت المقدس ثم ذهب إلى بغداد ووقف على ضريح الصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني،فكان لذلك كله أثره العميق في نفسه واتجاهه في الحياة،وكما يذكر الأمير"كنت مغرما بقراءة كتب القوم."[8]

لكن هذه الصوفية هي صوفية العرفان التي تعظم شرع الله، ويعد تصوف الأمير عبد القادر نموذجا حيا لتجربة روحية وفكرية ثرية فريدة من نوعها في العصر الحديث.لأنه جمع بين السبق والفضل في تأسيس الدولة الجزائرية والتصدي للعدوان، وبين البحث عن اليقين والكمال، الذي يقربه من أهل العرفان.

فالأمير يعد تلميذا للشيخ محي الدين بن العربي، بل وورثا لمعارفه الكشفية وإشاراته العرفانية، وما يعكس ذلك هو حضور بعض المصطلحات العرفانية الصوفية في كتابه "المواقف" كالإنسان الكامل مثلا وإجلاله الكبير لشيخه محي الدين بن عربي.[9]

كما درس الأمير كتاب "الإحياء" للغزالي وتأثر به ونقل عنه ،وهو ينتقد المتكلمين والفلاسفة وينصح لنا أن نسلك طريقة الأنبياء في التعرف على الله. فقد كان العارف المتصوف الذي خير السهل والوعر في جميع ميادين الصنوف السلوكي والعرفاني، مع شغف كبير بالمطالعة فتحت له المجال للإطلاع على كتب العلم والفلسفة، وقد أظهر الأمير قدرة عالية على الاستنباط والفهم من كتاب الله وسنة رسوله، وأشرب التصوف من خلال كتاب "الإتقان في علوم القرآن "وكتاب "الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز "وقرأ كتاب "الشفاق

في تعريف حقوق المصطفى" للقاضي عياض والصحيحين ،كما جلس للتعليم في دمشق حيث اجتمع إليه الطلاب والعلماء.[10]

**3-مظاهر التسامح في حياة الأمير عبد القادر:**

ساهمت عدة عوامل في تشكيل وصقل شخصية الأمير وجعلته النموذج المقصود بالوصف وارتسمت فيه صفة السماحة والتسامح،الأمر الذي عكس ذلك فى أرض الواقع في بني جلدته وتعدى ذلك إلى أعداءه وغيرهم.

إن الطابع الإنساني الذي انصبغت به معاملاته تجاه عدة حوادث، شملت أسرى العدو وخصومه في الداخل، بالإضافة إلى مواقفه مع الأقليات المسيحية في بلاد الشام. الشيء الذي جعل العديد من ساسة الغرب وقادته، ومثقفين يعترفون ويقفون مبهورين بمدى سماحته وإنسانيته.[11]

**أ-معاملته للأسرى:**

لقد كان الأمير فارسا لا يستهين بخصمه ولا يحتقره، ولا يضربه إلا بشرف الخصومة فلا يمثل ولا يتشفى ولا يحقد.[12]الفروسية عند الأمير هي خلق جهادي عالي المستوى يمكننا أن نراه في قادة الفتح الأوائل ،ورغم البشاعة التي يمارسها الصليبيون ضد الأبرياء من المسلمين،نرى أن الأميركان شديد الحرص أن يطبع كل حركته الجهادية بأخلاق الإسلام السامية،فلا يقتل أسيرا ولا يمثل بقتيل وكان يأمر بالإحسان إلى الأسرى ويدعو لهم بالفرج والعودة إلى أهلهم.[13]

لقد أكد على هذه الإنسانية في الأمير الأعداء قبل الأصدقاء،يقول هنري تشرشل"إن العناية الكريمة والعاطفة الرحيمة التي أبداها عبد القادر نحو الأسرى ليس لها مثال في تاريخ الحروب؛ فكبار الضباط المسيحيين عليهم أن يجلسوا عند قدميه ،وأن يمسحوا بها لانحطاطهم في المعاملة...والواقع أن كلما كان عبد القادر حاضرا كان الفرنسيون الواقعون في قبضته يعاملون كضيوف لا كأسرى حرب فكان كثيرا ما يرسل إليهم سرا كميات النقود تختلف قيمتها من خمسة إلى عشرون دولارا من جيبه الخاص وكان يوصي بهم أن يكسوا ويطعموا جيدا بل لقد ذهب عبد القادر إلى أبعد من ذلك فمكنهم من تلبية حاجاتهم الروحية."[14]، هذا الذي عكس قمة التسامح في شخصية الأمير مع أعداءه في السراء والضراء.

يظهر أن الأمير عبد القادر كان حريصا على تأمين حياة الأسرى وساهرا على أوضاعهم وهو ما تؤكده الرسالة التي بعث بها إلى أسقف الجزائر ،بشأن أسرى الحرب جاء فيها: "أرسل قسيسا إلى معسكري، فسوف لا يحتاج إلى شيء، وسوف أعمل على أن أكون محل احترام وتبجيل لأنه له وظيفة مزدوجة. وهي أنه رجل دين وممثل لك. وسوف يصلي يوميا بالمساجين، ويواسيهم ويتراسل مع عائلاتهم، وبذلك يكون واسطة في الحصول لهم على النقود والثياب والكتب ،وبعبارة أخرى كل ماقد يحتاجونه أو يرغبون فيه مما يخفف عنهم شدة الأسر. وكل ما سوف نطلبه منهم، عند وصوله لدينا أن يعد وعد شرف لا يتغير بأن لا يتعرض في رسائله إلى الحديث عن معسكراتي، وحركاتي العسكرية."[15]

**ب-الأسرى في دولة الأمير عبد القادر:**

إن من يقرأ بعض تفاصيل مسيرة الأمير عبد القادر واختياراته السياسية ومواقفه الانسانية يكاد يجزم أنه أحسن من طبق تعاليم الشريعة الإسلامية في زمانه وأنه جسد التعاليم المحمدية في حياته فكان رحمه الله إمام وقته بلا منازع ومثال لغيره في الوقت الحاضر[16].سبعة عشر سنة من القتال والحروب والمواجهة مع أعتى قوات عرفتها الانسانية قوات اجتاحت كامل اوربا وروسيا، ثم اجتاحت الجزائر وشمال افريقيا نعم إنها فرنسا الإستعمارية[17].

واجه الأمير عبد القادر هذه القوات ببسالة وشجاعة بطولية وقوة وعزيمة تاريخية فخاض الحروب ودوخ الجيوش وفرق الجموع وأسر الجنود، وقد عامل جنود الاحتلال التي وصفت حسب شهادات الفرنسيين أنفسهم بأنها ظروف مثالية تجسد أسمى القيم الإنسانية وتمثل روح التعاليم الإسلامية المحمدية، الأمر الذي اضطر الفرنسيين انفسهم في تقاريرهم وصحفهم وكتاباتهم لشن حملة شعواء على هذه التصرفات النبيلة بغيت تشويه صمعة الأمير عبد القادر يقول أحد القادة الفرنسيين: " ينبغي لنا أن نخفي هذا الأمر ونكتمه عن العسكر لأنه إن علموا به لا يأتي لنا أن نحارب عبد القادر بالترتيب المناسب"، أدرك هذا القائد في خضم ما كان يعانيه الجيش الفرنسي في بدايته من سوء التموين وقلة الزاد فتخوف من فرار الجنود الفرنسيين ولجوئهم لرعاية الحاكم العادل عبد القادر، ويشير الكولونال سكوت في مذكراته وهو شاهد عيان وليس الخبر كالعيان إلى هذه الحقيقة فيقول:" والطريقة التي يعامل بها الأسرى في أراضي الأمير عبد القادر تبعث في نفسي الرضى والغبطة وهي تثبت زيف التقارير التي تزعم بأنهم لا يلقون أية عناية أو رعاية من العرب فإن هذه الأقوال مخالفة للحقيقة تماما". [18]

ومن مظاهر اعتناء الأمير بأسره وحرصه على حياتهم وسلامتهم أنه ضرب أحد جنود الجيش المحمدي 250 جلدة لأنه قطع راس أسير وجعل مكافأة لكل جندي يحضر أسير على قيد الحياة حرصا منه على سلامتهم. وقد حاول أحد الأسرى قتل نفسه خوفا من العرب وبعض تصرفاتهم أثناء الحرب خاصة وأنه بلغه أنهم يذبحون أسراهم، فبلغ الأمير ذلك فقال له : " لقد كذب عليك من قال لك هذا ، لإانت من الآن حر طليق عد إلى قومك وقل لهم أني معجب بشجاعة جنودهم وأني لست كما يظنون من شاربي الدماء" [19].

لقد خصص الأمير حصنين من حصونه يجمع فيهم أسرى الحرب وهما حصن تازة بسعيدة وحصن تاقدامت بتيارت ووفر فيهما كل ضروريات الحياة الكريمة، بل أكثر من ذلك أمر بإعفاء الأسرى من الخدمة يوم عطلة المسيحيين، كما كان الأمير يرفض وبشدة اجبار الاسرى على اعتناق الإسلام عملا بقول ربنا سبحانه وتعالى: "لا إكراه في الدين"، وإليك الحوار الذي دار بينه وبين أسيرين أحس أنهما أكرها على أن يصبحا مسلمين:" إن كنتما فعلا تريدان ذلك من طيب خاطر فأهلا وسهلا بكما ولكن إن كنتما تفعلان ذلك شعورا منكما بالخطر أثناء الحالة التي أنتما عليها فإنكما مخطئان فلو ظليتما مسيحيين كما أنتما الآن فلن يحدث لكما أي ازعاج ولن تمس شعرة من رأسيكما" [20]. أما بالنسبة للأسيرات فقد أوكل الأمير أمرهن للشريفة العفيفة السيدة الزهرة بنت سيدي بن دوبة والدته الحكيمة، حيث خصص لهن خيمة قرب خيمة أمه

يحرسهن زنجيات، وفي كل صباح تهديهم الزيت والزبدة واللحم، كما أولت عناية خاصة بالمريضات منهن بمنحهن ما يحتجنه من الضروريات بل حتى الكماليات[21].

**4-الأمير ومبدأ الإنسانية:**

سجل التاريخ لشخصية الأمير صورة من صور التسامح والإنسانية مع المسيحيين ،حيث قدم لهم يد المساعدة أثناء الفتنة التي حلت بهم في الشام عام 1860م، وتتمثل أحداثها في أن بعض السكان من (الدروز) قاموا بتدبير مؤامرة احتجاجا على فرض الدول الأوروبية على الدولة العثمانية منح بعض الامتيازات للمسيحيين في الشام.[22]

لكن هذه الأحداث تحولت بصفة متسارعة إلى مجزرة حقيقية، فتدخّل الأمير وأرسل الرسل إلى بعض أصدقائه من مشايخ "الدروز" في بداية الحرب الأهلية ،داعيا اياهم إلى الحلم والعفو،ثم ذهب إلى العلماء وطلب منهم أن يتدخلوا لدى الأهالي للتخفيف من حدة الأزمة ووقف تطورها.بعدها تدخل على رأس فرسانه وأنقذ حياة خمسة عشر ألف نسمة ينتمون إلى الكنيسة الشرقية من الموت.وكان يجمع هؤلاء في بيته ويقوم بإطعامهم من ماله ويواسيهم ويخفف من أحزانهم ،ويعدهم بالتقليل من كربهم ويهدئ من روعهم،على الرغم من صعوبة المأمورية إلا أن الأمير استطاع بحنكته أن يحافظ على سلامة هؤلاء المسيحيين.[23]

لقد أظهر الأمير في هذه النكبة أنه من طينة الكبار وأنه رجل المواقف الصعبة، وأثبت بذلك الأبعاد الإنسانية لشخصه ووطنه، وأكد كذلك على تسامحه الديني ونبذه للحروب والتعصب والصراعات.[24]

هذا العمل الذي أقدم عليه الأمير أثنى عليه العديد من الملوك والشخصيات الدينية، لأنه عكس أسمى قيم التسامح والإنسانية، ومن شهود العيان الذين أثنوا عليه قال أحدهم:"على أن الأرض لم تقفر من الكرام في ذلك الزمان المر. ولا يخلو زمان مهما كثر توحش أهله من بقية تبقى من أهل الفضل والمروءة. قد وجد في وسط أولئك الوحوش الظالمين رجل عظيم المقام، رفيع القدر، عالي الهمة، كثير التمسك بفضائل الإسلام، شريف في الحسب والنسب...وكان يكره قتل الضعفاء بالدسيسة والغدر، وينهي عما يحرمه دين المسلمين. فظهر بين تلك الجموع المنحطة مثل لؤلؤة في وسط حجارة صماء سوداء. وعلت نفسه علوا كبيرا عن دسائس الأتراك ومكايد المفسدين، وأفعال المتوحشين.هو السيد السند والفرد الأمجد، والبطل الأوحد: الأمير الخطير، والملك الخطير عبد القادر الحسني الجزائري، صاحب بلاد الجزائر ،طيب الله ذكره، ورحمه ألف رحمة، وأكثر الله من أمثاله بين الآدميين."[25]

كما أثنى عليه الإمام (شاميل) في رسالة شكر جاء فيها: "إلى من اشتهر بين الخواص والعوام، وامتاز بالمحاسن الكثيرة عن جملة من الأنام، الذي أطفأ نار الفتنة...واستأصل شجرة العدوان...سمعت أنك خافضت جناح الرحمة والشفقة لهم وضربت على يد من تعدى حدود الله..."

ومن الملوك الذين بعثوا له رسائل الثناء بعد الحادثة:

-رسالة قيصر الروس: "إلى الأمير عبد القادر، اقتضت رغبتنا أن نشهر التفاتنا إليكم بشهامتكم وعملكم بما اقتضته الإنسانية، واجتهادكم في انقاذ ألوف المسيحيين من أهالي دمشق، الذين وجدوا في خطر عظيم، اقتضى الحال أننا سميناكم من أعظم فرسان رتبتنا الإمبراطورية المشهورة بالنسر الأبيض."

-رسالة ملك إيطاليا: "إن عظيم تصرفكم في أمر المسيحيين في الحوادث الشامية قد أثبتت أمام أوروبا أنكم ممن حاز المزايا الحربية العظيمة، خصوصا في الحادثة الدمشقية التي أنقذتم فيها النفوس الكثيرة، فكان ذلك حلية لنفسكم الكريمة المصطفاة، ثم إنه يوجد بيني وبينك أيها الأمير العزيز مواصلة أفرح بذكرها وهي محبة الحرية التي تجعل تابعيها محافظين على العدالة الحقيقية ".

-رسالة ملكة إنجلترا: "من جلالة ملكة المملكة المتحدة بريطانيا العظمى إلى صاحب السمو الأمير عبد القادر، تذكارا للمساعدة الخيرية المبذولة للمسيحيين في دمشق سنة 1860."[26]

إن الأمير عبد القادر قام ابتداء من سنة 1837م، أي قبل اتفاقية جنيف بكثير، فيكون بذلك قد حدد مفهوم حقوق المستضعفين والمغلوبين والأسرى وجرحى الحرب والسجناء و قام بتقنين هذه الحقوق التي كانت غير معروفة."

**5-إحترامه لشعبه:**

من القيم الاجتماعية التي يقف عندها كل دارس لحياة الأمير عبد القادر ، هي احترامه لشعبه وحرصه على تحقيق العدل والمساواة واحترام الآخرين، ولعل أول شيء نسجله للأمير هو إن دولته انبثقت عن إرادة شعبية، وبيعة شرعية. بحيث تميزت هذه الدولة بالتزام رأي الجماعة أو برأي الأغلبية، فكان الجميع يناصره ويقف إلى جانبه، مع وجود أقلية أخرى من خصومه ومنافسيه تعارضه. كما أن مبدأ الالتزام بحكم القانون مهما كان بسيطا، التزاما عمليا لم يحد عنه وهو القائل:"سأحكم والقانون في يدي"، في اطار الشريعة الإسلامية.[27]

ومن جهة أخرى كان الشغل الشاغل للأمير هو جهة البناء الداخلي للدولة واعتبرها أهم حتى من الجبهة الحربية ضد الفرنسيين، وكانت المعاهدات الحربية واتفاقات الهدنة التي أمضاها مع الفرنسيين ليست عن ضعف عسكري، بل ليتفرغ أكثر لتمتين دعائم دولته الناشئة.وقد اشرك مجلس العلماء في الحكم وفي اتخاذ القرارات حتى يكون حكمه ممثلا لأوسع ما يمكن من الجماعة.

وأكد الأمير على رحابة صدره واتساع فهمه ،فكان يرد على خصومه ومعارضيه بكل حكمة حيث قال:"إن الغاية في قبولي لتقلد هذا المنصب أن تكونوا آمنيين على أنفسكم وأعراضكم وأموالكم مطمئنين على بلادكم متمتعين بوظائفكم الدينية.ولا يمكن أن أبلغ مرادي من ذللك إلا بمساعدتكم مالا ورجالا وبهذا تعلمون أن المنافع الحاصلة منكم عائدة إليكم."[28]

وكان هذا الحوار يجري بكل شفافية وحرية لا يستعمل فيه الأمير سلطته لكبت أصوات المعارضين له.

**خاتمة:**

الأمير عبد القادر رمز من رموز النّضال وأحرار العالم الّذين ناضلوا وكافحوا وجاهدوا لتنال شعوبهم الحرية والكرامة، لقد أثار كفاحه البطولي ضدّ فرنسا الغازية إعجابًا كبيرًا في كافة أنحاء العالم والدول الأوروبية.

إنّ تاريخ الأمير عبد القادر تاريخ عظيم ومشرّف، وهذه حقيقة لا يستطيع إنكارها أو التّشكيك فيها إلاّ جاحد ومكابر. فالنّاظر والمتفحّص في تاريخ الأمير عبد القادر يخرج بحقيقة واحدة هي إيمانه بالإنسان

وما يمكن أن يقدّمه للإنسانية، إذ يشهد التاريخ للأمير عبد القادر مخاطرته بحياته وموقفه الشّجاع عندما تدخّل سنة 1860 في دمشق ليضع حدًا للصّراعات الطّائفية الّتي وقعت بين المسلمين والمسيحيين، حيث أسهم في إنقاذ أكثر من 15000 مسيحي. وقد مدح قيصر روسيا الأمير عبد القادر لعمله الإنساني هذا فقال: "نحن إسكندر جميع الروسيين، إلى الأمير عبد القادر: اقتضت رغبتنا أن نشهر التفافنا إليكم لشهامتكم وعملكم بما اقتضته الإنسانية، واجتهادكم في إنقاذ ألوف المسحيين من أهالي دمشق الّذين وجدوا في خطر عظيم". قدَّم الأمير عبد القادر للإنسانية دروسًا في التّسامح والتّعايش السّلمي والأمن والاستقرار واحترام حقوق الإنسان، فهو يعتبر بحقّ رجل الإنسانية جمعاء وشعوب العالم أينما كانت وأينما وجدت، حيث اعتبر أسقف الجزائر "هنري تيسييه" الأمير عبد القادر من المؤسّسين الأوائل لفكر وثقافة التّسامح ما بين الدّيانات ولحقوق الإنسان واحترام الشّعوب والحضارات.

لم يكن الأمير عبد القادر بالرّجل العادي، بل كان يفكّر بعمق ويطلق العنان لفكره إلى الأعلى فكان مفكرًا تنويريًا، بل تقدّم فكره التّنويري المرحلة الّتي كانت تعيشها الجزائر آنذاك، ورسم طريقًا لمَن يأتي بعده، لكن الّذين كانوا يحيطون به لم يستوعبوا نظرته للمستقبل، وحاولوا إجهاض محاولة بناء الدولة الجزائرية، فقد وضع الأمير عبد القادر الأسس الأولى لدولة جزائرية محدثة ومعاصرة، حيث أنشأ إدارة مهيكلة، وأقرّ مبدأ المساواة في الضّرائب، ملغيًا الامتيازات القديمة.

وقد غلبتْ الصّفةُ السّياسية على الأمير عبد القادر بن محي الدّين الحسني، فلا نكاد نجد في الكتب الّتي تؤرِّخ للنّهضة العربية ذِكْرًا لهذا الأمير إلاّ وهو مرتبط بثورته ضدّ فرنسا، ومساعيه السّلمية ورحلاته السّياسية.

والحقّ أنّ عبد القادر الجزائري –إلى جانب هذا كلّه– رجل فكر متبحِّر في علوم الدّنيا والدّين. وقد كانت له آراء خاصة في قضايا العقل والأخلاق واللّغة والتّصوّف، ما يجعله يُدرَج في عداد رجالات النّهضة المبكرين، على تمايزه عن جلِّهم بأنّه رجل سياسة وفكر في آن.

وكان الأمير ينشد توحيد الشّعب الجزائري وتوعيته، وإلحاقه بركب العالم المتقدم، وبناء دولة تجمع بين الإسلام وحاجات العصر. وكان الهدف الأسمى والأشمل لعبد القادر هو جعل عرب وأمازيغ الجزائر شعبًا واحدًا ودعوتهم للمحافظة التّامة على دينهم، وبعث روح الوطنية فيهم، وإيقاظ كلّ قدراتهم الهامدة، سواء للحرب أو للتّجارة أو للزّراعة أو للأخلاق والتّعليم.

وكان الأمير عبد القادر نموذجًا ومثالاً للخصائل الأخلاقية الرّفيعة والقتالية المحترفة، فقد أثار في نفوس جنوده وضبّاطه ومواطنيه صورًا رائعة للتّفاني والإخلاص في خدمة القيم والمبادئ، والحرص على تحرير الوطن من المحتلين الغُزاة، ويقرّ كلّ كُتّاب سيرته، بمن فيهم الفرنسيون، أنّه كان نزيهًا، وأنّه كان يملك أقصى درجات الشّعور بمكانة وقيمة الأموال العامة، وأنّه لم يعرف سوى خدمة القضية الّتي كان يعلم أنّها عادلة، ضاربًا بذلك أسمى مثال للتّفاني والشّجاعة الخارقة.

ولقد اعترف خصومه القادة العسكريون بعبقريته الفذّة، وأظهروا إعجابهم بالأمير، مثل المارشال «بيجو» و«لامورسيير» و«شاغارنيه»، وقد قال الجنرال بيجو عن الأمير: "خصم صنديد نخشى بطشه."

ومع كلّ هذه الخصال العظيمة الّتي تميّز بها هذا القائد العظيم، فقد تعرّض لحملات تشويه مركّزة ومنظمة، واتّهموه بوحدة الوجود وتأثّره بفكر ابن عربي، وثبت بالدّليل والبُرهان بطلان الكثير ممّا نُسب إليه، وبراءته من عقيدة وحدة الوجود والانتساب إلى المحافل الماسونية.

إنّ الأمير عبد القادر اشتهر بين النّاس بنزعته الإسلامية، واهتمامه بالقرآن والسُّنّة والتّصوّف السّنّي الرّشيد على نهج الشّيخ عبد القادر الجيلاني الّذي أثنى عليه علماء السّلف، من أمثال ابن تيمية وابن القيم وغيرهم كثير.

إنّ حياة الأمير صفحة مفتوحة للباحثين ناصعة البياض نقية طاهرة، واتّهامات أعدائه الباطلة تتساقط أمام الحقائق الرّاسخة وتتلاشى مع الحجج الدامغة، وتذهب جفاء لأنّها زبد، وسيرته العطرة تبقى خالدة في معانيها وقيمها ومبادئها لأنّها تنفع النّاس. وإنّ مواقف الأمير عبد القادر وإنجازاته وخدماته لهذا الوطن لجديرة بالدّراسة والبحث والنّشر، فهو نموذج للقائد القدوة والمجاهد المخلص الّذي نفتقده في هذه الأيّام العصيبة الّتي تمرّ بها أمّتنا العربية والإسلامية.

**الهوامش:**

[1] مذكرات الأمير عبد القادر،سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849م،تحقيق،محمد الصغير بناني وآخرون،شركة دار الأمة،برج الكيفان ،الجزائر،1994،ص27.

[2] نفسه ،ص28.

[3] نفسه.

[4] مذكرات الأمير: المصدر السابق،ص30.

[5] صالح عوض:معركة الإسلام والصليبية في الجزائر،الزيتونة للاعلام والنشر،باتنة ،الجزائر،ج.1،ص110

[6] نفسه ،ص112.

[7] عبدالله شريط،مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الإيديولوجي في الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر1986،ص99.

[8] صالح عوض ،المرجع السابق،ص112.

[9] نفسه ،ص113.

[10] الأمير عبد القادر،المواقف،دار اليقظة،دمشق،سوريا،ج.1967،2،ص872.

[11] فؤاد صالح السيد،الأمير عبدالقادر متصوفا وشاعرا،وزارة الثقافة،الجزائر،2007،ص43.

[12] صالح عوض:معركة الإسلام والصليبية في الجزائر،الزيتونة للاعلام والنشر،باتنة ،الجزائر،ج.1،ص110.

[13] نفسه :ص111.

[14] شارل هنري تشرتشل: حياة الأمير عبدالقادر،ترجمة ،أبو القاسم سعدالله ،ص101-102.

[15] سعدالله أبي القاسم :أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،لبنان،ط.1990،3،ج.1،ص128وما بعدها .

[16] غانم حنجار،النضال الأميري بين السيف والقلم،أبحاث للاتصال والنشر والإشهار،دار الثقافة،تسمسيلت،2012،ص52-53.

[17] أحمد توفيق المدني،أبطال المقاومة الجزائرية،عالم المعرفة للنشر والتوزيع،الجزائرط.1 . 2010م ،ص85.

[18] سكوت الكولونيل،مذكرات الكولونيل سكوت،تر.وتعليق،اسماعيل العربي،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،ط1981م،ص45.

[19] سعدالله أبي القاسم،المرجع السابق،ج.1،ص128.

[20] غانم حنجار، المرجع السابق،ص52.

[21] نفسه ،ص53.

[22] ضيف الله محمد الأخضر،محاضرات في النهضة العربية الحديثة ،ديوان المطبوعات الجامعية،ط.2،الجزائر،1981،ص39.

[23] نفسه،ص 40.

[24] نفسه ،ص40-41.

[25] غانم حنجار،المرجع السابق،ص53.

[26] هنري تشرشل،المصدر السابق،ص289.

[27] عبدالله شريط،المرجع السابق،ص99.

[28] نفسه.